

لو اكتفى هذا المتكبر بشكر الله على ما منحه الله من مال وجاه ونسب وجمال، لكان في مصاف الشاكرين الذين يحبهم الله، ويكرمهم الله فوق كرامتهم، فالشكر لله من أولويات ما يطلب من الأنبياء، فאלله يخاطب نبيه موسى قائلاً: (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)

المتكبر جحد نعمة الله ونسبها لنفسه، كما فعل قارون الذي خسر الدنيا والآخرة.. قارون الذي شح على ربه بكلمة شكر.

كان النبي ﷺ يحاول المحافظة على ما أنجزه الإسلام من مساواة وتلاحم، وكان المهاجرون والأنصار هم النموذج البشري الصرف الذي قدمه النبي ﷺ للعالم.. لقد قدم الأنصار الكثير، فماذا فعل أخوتهم المهاجرون بعد غزوة خيبر؟

المهاجرون يردون الجميل بالوفاء

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما قدم المهاجرون من مكة المدينة؛ قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك وهي تدعى أم سليم أعطت رسول الله ﷺ عذاقاً لها، فأعطاه رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته^(١) وهي أم أسامة بن زيد.

قال أنس ابن مالك (أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، فرد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها، وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه^(٢)) وقد حسن فتح خيبر من مستوى التغذية لدى المسلمين، فأصبحوا كما يقول ابن عمر رضي الله عنهما «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»^(٣)

أي ما شبعنا من التمر فقط، ومع هذه الحاجة والفقر كان الإسلام يقدم ثقافة متحضرة لأتباعه، حتى لا تزعزع المادة توازن الإنسان، فالفتوح قادمة، والوعود كشمس

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٩١.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢٩١.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

الغد مشرقة لا محالة، وإذا لم يتهياً المسلم بثقافة التوازن فسوف يجد نفسه مجرد رقم على سطح الأرض.

يقول أبو سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ: أكل تمر خيبر هكذا؟ فقال: لا، والله يا رسول الله إنا لناخذ الصاع من هذا بالصاعين، بالثلاثة.

فقال: لا تفعل، بع الجمع بالدرهم، ثم ابتع بالدرهم جنياً»^(١) لأن التمر من الأموال التي يحدث فيها الربا، وقد «قال رسول الله ﷺ الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد. فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»^(٢) وإلا وقع المسلم بالربا.

الربا ممر يعبر من خلاله الاستغلال والفقر، وانهيار الأخلاق والاقتصاد، وهو جشع قديم يتجدد كلما غفت الأخلاق ونهضت الغرائز العمياء داخل الإنسان، والنبى عليه السلام يريد ردم هذا الممر الخطير على دولته وشعبه، كما يريد ردم أي ممر يعبر منه خطر إلى دولته الجديدة بالتوحيد. لذلك عاد ﷺ إلى:

بث السرايا من جديد

فأمام النبى ﷺ قائمة طويلة بالمهمات الملحة، والمخاطر والأزمات التي يتحتم عليه علاجها أو القضاء عليها، بعد كسر شوكة التآمر اليهودي، وتحييد قريش وحلفائها. ففي الجزيرة العربية بؤر للإرهاب لا تخضع لدولة ولا لنظام قائم، ولا لمفاوضات أو شروط، ولا حتى لعرف أو شرف. هناك جماعات إرهابية تعيش خارج التاريخ الذي بدأ ﷺ يكتبه بالتوحيد والإسلام، وقد حان الوقت لتأديبها والقضاء عليها، وهي وإن كانت صغيرة، إلا أنها مزعجة ومؤلمة ومعيقة للمد الإسلامي، وهي تلوث الجزيرة والدنيا بالشرك وقطع الطريق، وواد البنات والنهب والسلب، والقتل والفوضى وإرهاب القوافل والمدن. وهذا هو أنسب وقت للتخلص منها أو من معظمها.

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢١١.

لذلك يتحتم عدم إهدار فرصة السلام مع قريش، لتأمين ممرات المسافرين والتجار والحجاج، وتأمين حدود المدينة وفرض هيبتها ووجودها في ظل هذه الأوضاع المتدهورة في الجزيرة العربية، لذلك نظم النبي ﷺ سرايا للقيام بتلك المهمات، وقد لخص ﷺ مطالبه من أولئك الأعراب برسالة حملها أعرابي إلى من تسول له نفسه إعادة الجزيرة إلى همجية الجاهلية، وقد بقيت تلك الرسالة في خرج ذلك الأعرابي زمناً طويلاً.

رجل اسمه (يزيد بن الشخير) يتحدث عن تلك الرسالة فيقول: «كنا جلوساً بهذا المريد بالبصرة، فجاء أعرابي معه قطعة أديم أو قطعة من جراب، فقال: هذا كتاب كتبه لي النبي ﷺ.

فأخذته فقرأته على القوم فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله ﷺ لبني زهير بن أقيش، إنكم إن أقمتם الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغنم الخمس، وسهم النبي والصفى، فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله»^(١).

ولعل من أهم تلك السرايا سرية مهمتها تأديب (فزارة) الذين أغاروا على المدينة وسرقوا ما سرقوا.. مستغلين تواجد النبي ﷺ على أرض الحديبية، لكن وصول سلمة بن الأكوع ساهم في إفشال ذلك السطو المسلح على المدينة، وقد أرجأ ﷺ تأديبهم إلى حين عودته من خيبر، ثم كلف صاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه بقيادة وتنفيذ:

غزوة فزارة

وقد شارك في هذه الغزوة سلمة بن الأكوع فارس تلك الغزوة السابقة المسماة (ذات قرد أو الغابة).. سلمة فارس بمقاييس جيش، وهو الآن يتحدث عن تأديب قطاع الطرق للمرة الثانية، بعد أن أدب طلائعهم في الغابة.

(١) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٣٤٩-٧ وغيره من طريق عن قرة بن خالد عن يزيد. قرة ثقة ضابط - التقريب ٤٥٥ ويزيد تابعي ثقة ولد في عهد عمر رضي الله عنه.

يقول رضي الله عنه: «غزونا فزاره وعلينا أبو بكر، أَمَرَهُ رسول الله ﷺ علينا، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا، ثم شن الغارة فورد الماء فقتل من قتل عليه وسبى، وأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزاره عليها قشع من آدم (القشع النطع) معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة.

فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً. ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك. فقلت: هي لك يا رسول الله، فوالله ما كشفت لها ثوباً. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة»^(١)

وهو لا يعني بكلمة أسروا، أن أسرهم كان عن طريق الحرب، إنما يقصد أولئك المسلمين المستضعفين، الذين منعوا قهراً من الهجرة إلى نبيهم ﷺ، وقد استحققت فزاره ما أصابها من جيش أبي بكر، فقد شاركوا قريشاً في معركة الخندق كجزء من غطفان، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بالإغارة على المدينة، وسرقوا وقتلوا، وهذا النوع من الإرهاب وقطع الطريق خارج عن نطاق العقل، ولا تجدي مع هذه الهمجية أساليب الحوار، ولا ينقاد صاحبها لحق إلا بعد كسر شوكرته، أما من لم يتعرض لدولة الإسلام بشر فلن يتعرض له أحد، بل سيجد من دولة التوحيد وجيشها صدوراً مفتوحة وأخلاقاً رفيعة أسرة، كما حدث في هذه السرية التي قادها عليه السلام بنفسه وكانت:

سرية من أربعين رجلاً وامرأة تقود قومها إلى الإسلام

سرية مثيرة.. كلها دعوة ومعجزات.. أحد فرسانها صحابي جليل اسمه (عمران بن حصين) وهو يقول: «كنت مع نبي الله ﷺ في مسير له، فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان في وجه الصبح عرسنا، فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس، فكان أول من استيقظ منا أبو بكر، وكنا لا نوقظ نبي الله ﷺ من منامه إذا نام حتى يستيقظ، ثم استيقظ

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١٢٧٥-٢.

عمر، فقام عند نبي الله ﷺ [فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس، وكان رجلاً جليداً، فكبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير] حتى استيقظ رسول الله ﷺ، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال: ارتحلوا. [فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، فاتتنا الصلاة. فقال: لم تفتكم.

ثم أمرهم رسول الله ﷺ فركبوا] فسار بنا حتى إذا ابيضت الشمس نزل [ونزلوا معه، وكأنه كره أن يصلي في المكان الذي نام فيه عن الصلاة، ثم قال رسول الله ﷺ: انتوني بماء.

فأتوه بجريعة من ماء في مطهرة، فصبها رسول الله ﷺ في إناء، ثم وضع يده في الماء، ثم قال لأصحابه: توضؤوا] [ثم أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بالصلاة، فنودي بها ثم قام] فصلى بنا الغداة، فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا، فلما انصرف قال له رسول الله ﷺ: يا فلان ما منعك أن تصلي معنا؟ قال: يا نبي الله أصابتنى جنابة.

فأمره رسول الله ﷺ فتيّم بالصعيد فصلّى، ثم عجلني في ركب بين يديه نطلب الماء، وقد عطشنا عطشاً شديداً [فأقبل رجلان من أصحابه، أحسبه علياً والزيير أو غيرهما، قال: إنكما ستجدان بمكان كذا وكذا امرأة معها بغير عليه مزادتان، فأتياني بها.] فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء.. قالت: أيها، أيها، لا ماء لكم.

قلنا: فكم بين أهلك وبين الماء.. قالت: مسيرة يوم وليلة. قلنا: انطلقى إلى رسول الله ﷺ قالت: وما رسول الله [ومن رسول الله؟ هذا الصابى؟] قال: هو الذي تعنين، وهو رسول الله ﷺ.]

فلم نملكها من أمرها شيئاً حتى انطلقنا بها، فاستقبلنا بها رسول الله ﷺ، فسألها فأخبرته مثل الذي أخبرتنا، وأخبرته أنها موتمة لها صبيان أيتام. [فقال علي: يا رسول الله بأبي وأمي، إنا وجدنا هذه بمكان كذا وكذا، فسألناها عن الماء، فزعمت أن بينها وبين الماء مسيرة ليلة، أو زيادة، فظننا أن لم نبغها حتى يهلك منا من هلك.

فقال رسول الله ﷺ: أنيخوا لها بغيرها.

فأنأخوا لها بغيرها . فأقبلت عليهم، فقالت: استقيت لأيتام، وقد احتبست عليهم جداً . فقال رسول الله ﷺ: أثتوني بإناء .

فجاءوا بإناء، فأمر براويتها فأنيخت . [فقال: افتحوا عزلاء هذه، فخذوا منها ماءً يسيراً، ثم افتحوا عزلاء^(١) هذه فخذوا منها ماءً يسيراً أيضاً . ففعلوا، ثم إن الرسول ﷺ دعا فيه وغمس يده فيه، فقال: افتحوا لي أفواه المزداتين .

ففتحوا، فحثا في هذه قليلاً، وفي هذه قليلاً، فمَج في العزلاوين العلياوين، ثم بعث براويتها فشربنا ونحن أربعون رجلاً عطاشاً حتى روينا، وملأنا كل قربة معنا وإداوة وغسلنا صاحبنا، غير أننا لم نسق بغيراً وهي تكاد تتضرج من الماء (يعني المزداتين) [ثم قال: أسقوا ظهركم .

فسقوا الظهر حتى روي، ثم قال رسول الله ﷺ: هاتوا ما كان لكم من قربة أو مطهرة فاملئوها . فجاءوا بقرهم ومطاهرهم فملئوها، ثم قال رسول الله ﷺ: شدوا عزلاء هذه، وعزلاء هذه . ثم قال: ابعثوا البعير .

فبعثوها فنهضت وإن المزداتين لتكادان تطفان من ملئهما ثم اتخذ رسول الله ﷺ كساء المرأة [ثم قال: هاتوا ما كان عندكم .

فجمعنا لها من كسر وتمر وصر لها صرة، فقال لها: اذهبي فأطعمي هذا عيالك، واعلمي أنا لم نرزأ من مائك، [خذي هذا لأيتامك، وهذا ماءك وافراً .

فجعلت تعجب مما رأت، ثم انطلقت حتى أتت أهلها فقالوا: قد احتبست علينا فما حبسك [فلما أتت أهلها قالت: لقد لقيت أسحر البشر أو إنه لنبي كما زعم، كان من أمره زيت وزيت، [أرأيتم مزداتي هاتين.. فوالله لقد شرب منهما] [وأخذوا من القرب والمزاد والمطاهر ما لا أحصي، ثم إنهما الآن أوفر منهما يومئذ فلبثت شهراً أو نحواً من ذلك]، فهدى الله ذاك الصرم بتلك المرأة، فأسلمت وأسلموا [ثم أقبلت في ثلاثين راكباً إلى رسول الله ﷺ] «^(٢) فاستقبلها بالقلب الذي يستقبل به كل حبيب

(١) قم الرية من أسفل .

(٢) مسلم ١-٤٧٤ والزيادة الأولى عند البخاري ١-١٣١ والثانية والثالثة والسادسة وما بعدها في دلائل البيهقي ٤-٢٧٩ وهي قوية الإسناد والرابعة والخامسة في سنن البيهقي ١-٣٢ وقد رواها من طريقين قويين عن عبد الرزاق حدثنا معمر عن عوف عن أبي رجاء عن عمران وعبد الرزاق عن معمر سند صحيح وباقى السند: سند الشيخين .

مهاجر إلى مدينة التوحيد، وقدم لأصحابه طرازاً نسوياً رفيع المستوى.. امرأة تتسلل إبداعاً في عقول قومها، وتمحو ذاكرة وثنية متخثرة موغلة في القدم، ثم تقنعهم بالمسير معها في رحلة ممتعة نحو مدينة الوعي الجديد، بعد شهر من نشر التوحيد في بيوتات قومها.

إنجاز غير مسبوق للمرأة.. في زمن قياسي مدهش لم ينجزه سوى النبي ﷺ، والمرأة قادرة على أكثر وأعظم، لكن ذلك مشروط بقدرتها على التخلص من عقد القصور والاضطهاد والأنوثة، التي تتذرع بها للتفلت من مسؤولياتها.. حيث يأتي الوعي والتحرر بالإسلام في مقدمة تلك المسؤوليات.

في تلك الغزوة لم تؤخذ تلك المرأة سبية، ولم تجد من ذلك الجيش إلا ما يسرها ويفرح أيتامها، لأنها لم تمارس أي شيء ضد الدولة الإسلامية.. حتى ذلك الماء الذي كانت تحمله.. لم يؤخذ منه قطرة واحدة، بل لقد كان النبي ﷺ نهر كرم عندما أمر صحابته بتزويدها بالطعام، وهم في أمس الحاجة إليه.. تعبيراً عن مواساته لها، وابتهاجا بما تنجزه تجاه أولئك الأيتام.

وإذا كانت تلك السرية تعود محملة بالمشاعر والعطايا والإيمان، فإن هناك سرايا عادت ببيع الكدر رغم تنفيذها لمهامها المناطة بها، وتلك طبيعة البشر التي يفترض فيها الصواب والخطأ، لكن تلك الأخطاء قدمت دروساً في العقيدة والفكر.

درس في حدود طاعة الأمراء

سرية بعثها ﷺ وعين أحد الأنصار أميراً عليها.

يقول «علي رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطباً. فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً. فأوقدوها. فقال: ادخلوها.

فهموا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار. فسكن غضبه. فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف»^(١).

وقد كرر هذه الأوامر أحد المهاجرين ممازحاً فرقته.. في:

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٧.

سرية رأس عرانة

هذا المهاجر يدعى (عبد الله بن حذافة السهمي) وهو الآن في سرية تحت إمرة صحابي اسمه (علقمة بن مجزز)

يقول أحد المشاركين فيها وهو «أبو سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ بعث علقمة بن مجزز على بعث أنا فيهم، فلما انتهى إلى رأس عرانة، أو كان ببعض الطريق استأذنته طائفة من الجيش، فأذن لهم، وأمر عليهم عبد الله ابن حذافة بن قيس السهمي، فكنت فيمن غزا معه، فلما كان ببعض الطريق أوقد القوم ناراً ليصطلوا، أو ليصنعوا عليها صنيعاً، وقال عبدالله (وكان من أهل بدر وكانت فيه دعاية): أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى. قال: فما أنا أمركم بشيء إلا صنعتموه؟ قالوا: نعم. قال: فإني أعزم عليكم إلا توثبتم في هذه النار. فقام ناس فتحجزوا، فلما ظن أنهم واثبون قال: أمسكوا على أنفسكم فإنما أمزح معكم.

فلما قدمنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه»^(١).

في الإسلام.. الحاكم أو الأمير أو القائد ليس نائباً عن الله، ولا متحدثاً باسمه، وليس له من صلاحيات التشريع والتحليل والتحريم ما يحل به حراماً أو يحرم حلالاً.. حتى في بيت المال المنشور بين يديه.. ليس من حقه وحق أهله أكثر من حقوق غيره من الأمة.

يقول ﷺ لعلي بن أبي طالب شيئاً خطيراً.. ها هو علي يحدث به رجلاً يطالبه بشيء من الرفاهية في المائدة على الأقل.

اسم هذا الرجل (عبد الله بن زريق) وهو يقول: «دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الأضحى، فقرب إلينا خزيمة»^(٢)، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط يعني الوز، فإن الله عز وجل قد أكثر الخير..

(١) سنده حسن رواه ابن أبي شيبة ٥٤٤-٦ وغيره من طريق محمد بن عمرو عن عمر بن الحكم بن ثوبان عن أبي سعيد الخدري وعمر بن الحكم تابعي صدوق. التقريب ٤١١ وتلميذه حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال الشيخين. التقريب ٤٩٩.

(٢) الخزير طعام متواضع كالعصيدة.

فقال: يا ابن زبير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس»^(١)

إذا فالأمير أو الحاكم ليس إلها، ولا نصف إله.. إنه مجرد مفوض من قبل الأمة لإدارة شئونها.. لا أكثر، والله أنزل ضمن كلامه - القرآن - آية تطالب بطاعة الأمراء أمثال ابن حذافة وذاك الأنصاري، وكل الأمراء إلى يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

وكم يحلوا لبعض خصوم الإسلام التوقف عند هذا القدر من الآية حتى يتهموا الإسلام بدعم الاستبداد، لأن بقيتها تزعجهم، فאלله يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ومن كثرة ترديدهم لهذه الآية يخيل لمن لا يعرف القرآن أن الرعية ليس لها وظيفة سوى طاعة الراعي، وتقديسه والتسبيح بحمده.. متناسين أن القرآن يحتوي على آيات كثيرة تجعل العمود الفقري للحكم الإسلامي هو (العدل) فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾

العدل أحد أهم رسائل القرآن: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾

العدل هو رسالة محمد ﷺ التي ألقاها القرآن على عاتقه فقام بها خير قيام عندما خاطبه القرآن قائلا: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

ويقول لنبينه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنزَلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا

(١) سننده قوي رواه أحمد ١-٧٨ من طريق ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن زبير عن علي. وكلهم ثقات إلا ابن لهيعة ولم ينفرد، فقد تابعه في مسند الشاميين ١-١٤٩ عبد الرحمن بن ثابت العنسي وهو صدوق يخطئ التقريب ٣٢٧ .

تَقَرَّبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعِزَّانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

العدل رسالة كل الأنبياء بعد التوحيد ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾

العدل كان محور رسالة نبي لقوم فشا بينهم الظلم والغش والفساد المالي، حيث يحكي القرآن قول ذلك النبي ﴿وَيَقُومُوا أَلْمِيزَاتِ وَالْعِزَّانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ﴿٢٤﴾ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَرَبُّوهُم بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٥﴾ وَرَبُّوهُم بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٢٦﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٧﴾

العدل رسالة النخبة من مثقفي وعلماء الأمة.. لا تزيين الظلم للحاكم: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

العدل واجب على الحاكم حتى مع الخارجين عن القانون ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

العدل واجب حتى مع من ييغضهم الحاكم ويغضونه أو من يعاديهم ويعادونه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

العدل واجب حتى مع من يكذبون ويسرقون ويلفقون للحاكم التهم ويشوهون دينه ممن هم ﴿سَمِعُوكَ لِكَذِبٍ اكْتَلُوكَ لِلشَّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

العدل واجب في تعاملاتنا مع غير المسلمين ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

العدل شيء مقدس ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

لدرجة أن جعل الله لذنوب الكفر، وذنوب قاتل النبي، وذنوب من يقتل شخصا يأمر بالعدل عقابا شنيعا واحدا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وآيات أخرى أكثر تحرم الظلم وتتوعد الظلمة.

كان عليه السلام يؤسس بكلام ربه وبسنننه مفهوما طمسته الطواغيت.. مفهوما عظيماً يقول: الأمير لخدمة الأمة لا العكس، أما طاعة الأمير فليست خدمة له.. إنها باختصار طاعة للتشريع الذي أمر الحاكم بتنفيذه.

وإذا كانت تلك السرايا قد بينت حدود نفوذ القائد فإن هناك:

سرايا تحدد صلاحيات المجاهد المسلم

فالمجاهد لم يخرج من بيته وبلاده ليملاً بطنه أو جيبه، ولم يخرج ليرضي غروراً تراقص في رأسه.. هو محارب مميز بين كل المحاربين، لم يخرج من بيته سوى شيء واحد: أن تكون كلمة الله هي العليا، ولكي يكون هذا الهدف نقياً بين جوانحه عليه، قبل أن يخرج، أن يدفن تحت بوابة مدينته أشياء كثيرة منها:

المال، والشهرة، والهوى، والرغبة في الانتقام، للنفس و.. و.. لكي يتفرغ لشيء واحد هو: إعلاء التوحيد لا فرضه بالقوة، فإذا لم يتمكن من دفن تلك الأشياء، فإنها ستتغص عليه جهده وجهاده.. إن لم تحوله إلى رماذ لا قيمة له.

أخطاء كثيرة وقع فيها بعض الصحابة رضي الله عنهم، لكن فعلهم ذلك لا يحسب على الإسلام، إنما يحسب عليهم أنفسهم، لأن النبي ﷺ كان حياً آنذاك، وقد قام بتصحيح تلك الأخطاء حتى لا يبرر من بعدهم لنفسه ممارستها بحجة أن أحد الصحابة فعلها.. متجاهلاً حكم الإسلام فيها.. متجاهلاً تصحيح النبي ﷺ لتلك الأخطاء.

بعض هذه الأخطاء تبين بعد معجزة حدثت بعد إحدى السرايا.. معجزة مزلزلة.

الأرض تلفظ جسد أحد المجاهدين

قصة تعيد الصواب للمتهورين الوالغين بدماء الأبرياء.. قصة يرويها «جندب بن سفيان رجل من بجيلة قال: إني عند رسول الله ﷺ إذ جاءه بشير من سرية بعثها، فأخبره بنصر الله الذي نصر سريته، وبفتح الله الذي فتح لهم. قال: يا رسول الله، بينما نحن بطلب العدو وقد هزمهم الله، إذ لحقت رجلاً بالسيف، فلما أحس أن السيف قد واقعه التفت وهو يسعى، فقال: إني مسلم، إني مسلم..

فقتلته، وإنما كان يا نبي الله متعوذاً..؟

قال ﷺ: فهلاً شققت عن قلبه، فنظرت صادق هو أو كاذب؟ قال: لو شققت عن قلبه ما كان يعلمني القلب، هل قلبه إلا مضغة من لحم؟ قال: فأنت قتلته، لا ما في قلبه علمت، ولا لسانه صدقت! قال: يا رسول الله، استغفر لي. قال: لا أستغفر لك.

فدفنوه، فأصبح على وجه الأرض ثلاث مرات، فلما رأى ذلك قومه استحيوا وخزوا مما لقي، فحملوه فألقوه في شعب من تلك الشعب»^(١).

(١) حديث صحيح رواه أبو يعلى ١-٣ حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي حدثني عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب حدثني جندب. شهر كثير الأوهام، لكن رواه عبد الرزاق ١٠-١٧٣ عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن موهب عن قبيصة. وعبد الله ثقة. التقريب ٤٥٥ وقبيصة وله رؤية وله شاهد يأتي بعده

لكن النبي ﷺ علم فيما بعد .. أخبره أحدهم بما حدث، فكان في تفسير النبي ﷺ وتوجيهه شيئاً يستعيد الأمل لذلك الفارس الذي رفضته أحضان الأرض.

صحابي شهد ما حدث اسمه (عمران بن حصين) يحدثنا فيقول: «بعث رسول الله ﷺ سرية فحمل رجل على رجل من المشركين، فلما غشيه بالرمح قال: إني مسلم. فقتله، ثم أتى النبي ﷺ فقال: إني أذنبت فاستغفر لي. قال: وما ذاك؟ قال: حملت على رجل من المشركين، فلما غشيته بالرمح قال: إني مسلم. فظننت أنه متعوذ، فقتلته. فقال: هلا شققت عن قلبه حتى يستبين لك؟ قال ويستبين لي يا رسول الله؟ قال: قد قال لك بلسانه فلم تصدقه على ما في قلبه.

فمات الرجل فدفناه، فأصبح على وجه الأرض، فأمرنا غلماننا فحرسوه فأصبح على وجه الأرض. فقلنا: غفلوا.

فحرسناه، فأصبح على وجه الأرض. فأتينا النبي ﷺ فأخبرناه، فقال: أما إنها تقبل من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعلمكم تعظيم الدم. ثم قال: اذهبوا به إلى سفح هذا الجبل، فانضدوا عليه من الحجارة ففعلنا»^(١).

وهذه سرية أخرى يأذن ﷺ لحبه أسامة بن زيد بالانضمام إليها بعد بلوغه، لكن حماس أسامة والشباب المتقد تحت ثيابه جعله يتمادي في إعطاء فروسيته ما ليس لها، فكانت زلة عمره التي لم يستطع نسيانها طوال حياته، وندمه الذي لم يقو على الهروب منه.

في سرية (الحرقات) أسامة يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله

ولما عاد إلى المدينة أحس بتأنيب الضمير، وزاحم أنفاسه شعور بالذنب، فلم يكن له ملاذ سوى النبي ﷺ يفصح له بما في نفسه، ويصحح به سلوكه ذلك إن كان مخطئاً.

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ٢٢٦-١٨ حدثنا بشر بن موسى ثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ثنا حفص بن غياث عن عاصم الأحول عن السميط بن سمير عن عمران بن حصين. السميط صدوق من رجال مسلم وتلميذه تابعي ثقة وحفص ثقة فقيه وابن سعيد الملقب بـ (حمدان) ثقة ثبت: التقريب (٥٦ و ١٧٣ و ٤٨٠) أما شيخ الطبراني ثقة نبيل انظر البلغة (١١١) والحديث شاهد لما سبق.

يقول رضي الله عنه: «بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله فطعنته.

فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟..»

فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ^(١) لهول ما ارتكبه.

أسامة هو حبيب النبي ﷺ الذي كان يحمله بين يديه إلى المسجد.. أسامة هو الذي كان ﷺ يطهر جرحه بفمه العطر، ويوصي به عائشة رضي الله عنها قائلاً «يا عائشة أحبيه فإنني أحبه»^(٢).. أسامة الذي يتحدث بنفسه عن مساحته داخل النبي ﷺ فيقول: «كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: اللهم ارحمهما فإنني أرحمهما»^(٣). كل هذا الحب لا يبرر لأسامة ذلك الخطأ، ولا يمنحه حق التحدث عن أسرار القلوب والنوايا، فالفاضح الوحيد للقلوب هو الوحي والوحي فقط، فإذا لم يكن ثم وحي فالقلب هو ما أمامك من مشهد لا ما تسافر بك الظنون إليه.

هاهو أحد الصحابة واسمه عتب بن مالك يعاني من أمرين:

الأول: مرض يكبل جسده عن الوصول إلى المسجد.

والآخر: رجل كثرت مضايقته للصحابة لدرجة جزم بها بعضهم أنه من المنافقين.

فكان لا بد من تسليم هذه الحيرة الغامضة إلى النبي ﷺ، فماذا فعل عتب،

وماذا فعل أصحابه الذين يتمنون؟

(١) صحيح مسلم ٩٦-١.

(٢) حديث حسن، وقد سبق انظر صحيح الترمذي للإمام الألباني أسكنه الله فسيح جناته ٤٠٩٨.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٣٦.

يتمنون اغتيال المنافقين

يقول رضي الله عنه: (أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله ﷺ: أني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي فأأخذ مصلى، فأتى النبي ﷺ ومن شاء الله من أصحابه، فجعل يصلي في منزلي وأصحابه يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عظم ذلك وكبره إلى (مالك بن دخشم) قالوا: ودوا أنه دعا عليه فهلك، وودوا أنه أصابه شر. فقضى رسول الله الصلاة وقال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأنني رسول الله؟ قالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قلبه.

قال ﷺ: لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأنني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه^(١) وإذا كان هناك من الصحابة من ألجمه الحلم عن التهور، فاكتمى بطلب الدعاء على مالك بن دخشم، فإن الحماس حمل أحد الصحابة على امتشاق سيفه نحو النبي ﷺ كي يأذن له بالإجهاز على رجل يجزم بنفاقه.

شاهده صحابي اسمه (عبيد الله بن عدي) وتحدث عنه فقال: «إن رجلاً سارَّ رسول الله ﷺ فلم ندر ما ساره به، حتى جهر رسول الله ﷺ، فإذا هو يستأمر في قتل رجل من المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى. ولا شهادة له. قال: أليس يصلي؟ قال: بلى ولا صلاة له.

فقال النبي ﷺ: أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»^(٢)

وماذا بعد أولئك الذين تتفوه أعمالهم بأشياء فظيعة..؟

لا شيء سوى أن المسلم غير معني باقتفاء مواطئ القلوب ولا مراميها، فهي مسافات طويلة ومفاوز مهلكة، وهدر للجهود والطاقات.

المسلم معني بتجديد الحياة بالإسلام.. بالبحث عن الخصوبة وإثراء سهولها بالجديد، لا بالوقوف أمام العقم وإهدار العمر في التحسر عليه، أما النتائج فهو أكبر من أن يصمر على أن تمثل بين عينيه قبل أن يمثل أجله. إن جاءت فيالها من نتائج، وإن تأخرت فقد سبقها إلى ما هو أبهى وأبقى، كما سبق هؤلاء الفرسان غيرهم من الأحياء.. فرسان:

(١) صحيح مسلم ١-٦١.

(٢) صحيح مسلم ١-٦١.

سرية الاثني عشر شهيداً

ففي المدينة، وبينما كانت إحدى النساء مسافرة في منامها.. شاهدت في طريق الأحلام رحلة هؤلاء الشهداء إلى الجنة.

يقول أنس رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا الحسنة، فربما قال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ فإذا رأى الرجل رؤيا سأل عنه، فإن كان ليس به بأس كان أعجب لرؤياه إليه.

فجاءت امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأنني دخلت الجنة، فسمعت بها وجبة ارتجت لها الجنة، فنظرت، فإذا قد جيء بفلان بن فلان، وفلان بن فلان، حتى عدت اثني عشر رجلاً -وقد بعث رسول الله ﷺ سرية قبل ذلك- فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر السدخ أو قال: إلى نهر البيدج. فغمسوا فيه فخرجوا منه وجوههم كالقمر ليلة البدر، ثم أتوا بكراسي من ذهب، فقعدها عليها، وأتى بصحفة أو كلمة نحوها فيها بسرة فأكلوا منها، فما يقبلونها لشق إلا أكلوا من فاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم.

فجاء البشير من تلك السرية فقال: يا رسول الله، كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان حتى عد الاثني عشر الذين عدتهم المرأة. قال رسول الله ﷺ: عليّ بالمرأة. فجاءت.

قال: قُصِّي على هذا رؤياك. فقصت. قال: هو كما قالت لرسول الله ﷺ^(١).

هذا هو الهدف والنتيجة الأسمى، والأهم في حركة المؤمن حتى الموت، أما في الحياة فمشروع أبيض قد يرى نتائجه وقد يموت دونها.

سافر أولئك الشهداء إلى النعيم، وبقي من بقي من رفاقهم ينتظرون الحصول على مقعد في تلك الرحلة الحلم، ولعل من أكثرهم شوقاً أولئك الذين عبروا الصحاري والبحار مهاجرين من الحبشة واليمن.. حيث كانت إحدى السرايا تنتظرهم.. في رحلة لا تقل عن معاناتهم السابقة.. سرية لدى أبي موسى سر تسميتها ب:

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-١٢٥ ثنا بهز ثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس وحدثنا أبو النضر ثنا سليمان المعني. سليمان ثقة وشيخه البنانى تابعي ثقة سمع من أنس.

غزوة ذات الرقاع الثانية

يقول رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر، بينما بعير نعتقبه. فنقبت أقدامنا، فنقبت قدمي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة (ذات الرقاع) لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق»^(١)

لكن أبا موسى ندم على ذكر معاناته خشية أن يعكر ذلك الحديث صفاء نيته، حيث يقول ابنه أبو بردة: «فحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك. كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه»^(٢) وذات الرقاع هذه تختلف عن غزوة ذات الرقاع السابقة، لأن تلك الغزوة سميت هكذا لمرور الجيش بمكان يقال له ذات الرقاع، ومن سياق تلك الغزوة يتبين أن العدد كان أكثر من ستة بكثير، كما أن الجمال هناك كانت متوفرة، لأن جابراً كان طوال الرحلة يركب جملة الهزيل الذي اشتراه منه النبي ﷺ، كما أن جابراً رضي الله عنه كان قد تزوج حديثاً، أي بعيد وفاة والده رضي الله عنه، ولم يعلم النبي ﷺ بذلك إلا بعد أن أخبره جابر.

أما هذا الغزوة فسميها أبو موسى والستة الذين معه رضي الله عنهم بهذا الاسم لقلعة الأحذية والخفاف، وهي سرية صغيرة ولم يحدد أبو موسى وجهتها، لكن أبا هريرة يحدد وجهة جيش شارك فيها، بل لقد سماها بـ:

غزوة نجد

وقد جرت في هذه الغزوة أحداثٌ أثارت تساؤل أحد الرجال الذين سألوا أبا هريرة فقالوا له: «هل صليت مع النبي ﷺ صلاة الخوف؟ فقال أبو هريرة: نعم. قال: متى؟ قال: كان عام غزوة نجد: فقام رسول الله ﷺ لصلاة العصر، وقامت معه طائفة وطائفة أخرى مقابل العدو ظهورهم إلى القبلة.

فكبر رسول الله ﷺ وكبروا معه جميعاً، الذين معه والذين يقابلون العدو، ثم ركع رسول الله ﷺ ركعة واحدة، وركع معه الطائفة التي تليه. ثم سجد وسجدت الطائفة التي تليه، والآخرون قيام مما يلي العدو.

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١٤٤٩-٣ والبخاري ١٥١٣-٤.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١٤٤٩-٣ والبخاري ١٥١٣-٤.

ثم قام رسول الله ﷺ وقامت الطائفة التي تليه، فذهبوا إلى العدو فقابلوهم، وأقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو. ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى، فركعوا معه وسجدوا معه.

ثم أقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو، فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه، ثم كان السلام، فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً. فكان لرسول الله ﷺ ركعتان، ولكل رجل من الطائفتين ركعتان ركعتان^(١)

كانت تلك الغزوات تأديباً للمعتدين، وتأميناً لطرق التجار والحجاج وحدود دولة الإسلام، التي تريد فرض هيبتها على من لا يؤمنون بأخلاقيات الجوار، ولا رصيد عندهم لمفهوم العهود والمواثيق، فبدأ الجميع ينعمون بأمن الطرق بعد تلك السرايا الناجحة إلا قوافل قريش؟ فهل كان عليه السلام يعترضها؟
أبداً، فهذه ليست أخلاقه وقد وقع صلح الحديبية.

إذا فمن أقلق أرواح وقوافل قريش؟ من حول طريق الشام إلى جحيم؟

أبو جندل وأبو بصير كانا هناك، ورفاقهما المشردون في البراري الممنوعون من حق العيش بأمان في دولتهم وبين أحبّتهم في المدينة، والذين مارست قريش أقصى حالات التوحش والتطرف في مصادرة حرياتهم.. كان هؤلاء يمارسون عنفاً مضاداً، لكنه كان منضبطاً وموجهاً بدقة نحو سبب معاناتهم فقط دون غيره.. هذا الهدف المحدد هو قريش وقوافلها. فقد أغلقت قريش أبواب الأرض دونهم، حتى منعتهم من دخول المدينة، وهذا العنف يبرأ منه النبي ﷺ، وتبرأ منه دولته، لكنها لا تمنعه لأنه صراع من أجل البقاء والكرامة.. هو دفاع عن النفس، وجزاء من جنس العمل لا أكثر ولا أقل، كما أنه يجري خارج حدودها.

(١) سنده قوي رواه النسائي ١٧٣-٣ وابن خزيمة ٢-٣٠١ من طريق عبد الله بن يزيد المقرئ قال حدثنا حيوة وذكر آخر قال حدثنا أبو الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يحدث عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة. عبد الله ثقة فاضل معروف وحيوة ثقة التقريب ١٥٨ وأبو الأسود هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ثقة التقريب ٤٩٣.

تجري هذه الأحداث وغيرها وتمر الأيام والشهور فإذا عام كامل يكاد ينصرم، وهذا يعني اقتراب نهاية عام على تاريخ عمرة الحديبية، التي لم يتمكن المؤمنون من أدائها بعد أن منعتهم قريش، وطلبت منهم العودة بعد عام، وهاهو الموعد يقترب، والنبي ﷺ يأمر أصحابه بالتهيؤ للتوجه لأداء:

عمرة القضاء

أي العمرة البديلة لعمرة الحديبية حسب اتفاق الطرفين، ولها استعد المسلمون وسط ظروف معنوية مرتفعة بفتح خيبر وعودة المهاجرين من الحبشة، أما المشركون فيعانون من الإحباط الشديد، فمحمد يستولي على خيبر، ودولته تتعاضد كل ثانية، وسمعتة سحابة عطر تطوف الجزيرة، وأبو جندل ومن معه يقضون مضاجع قريش وقوافلها، وقوائم ضحايا أبي بصير وأبي جندل تصل إلى قريش محملة بالنواح والعيول، والندم على ذلك الشرط المكتوب بالغطرسة الوثنية، وتسير قافلة المؤمنين ملتزمة بشروط قريش التي تقول: «لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها»^(١)

تسير قافلة المؤمنين ملتزمة بالسكينة والهدوء حسب الشروط والاتفاقية الموقعة بين الطرفين، وتقترب من مكة الحبيبية، فتشرع نوافذ الأرواح وأبوابها للذكريات، وأيام الطفولة والمعاناة...

آه ما أجمل مكة وأطيب ريحها، ما أجمل ذكريات الصبا فيها، لكن أصدقاء الفشل وأعداء النجاح يمارسون دوماً السخرية من المتفوقين عليهم.. ردماً لهوة الإحباط التي يعانون منها، وهو ما تلتفظ به قريش الآن، بعد رؤيتها لمحمد وأصحابه في طرقات مكة ودروبها، لكن النبي ﷺ يجيد وأد السخرية في مهدها.. يحشو جوفها بجمر التفوق.

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب طفل يعيش في مكة مع والده العباس.. كان هناك.. شاهد ما حدث، وتحدث فقال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

وهنتهم حمى يثرب، قال المشركون: إنه يقدم عليكم غداً قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر، وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا ما بين الركنين ليرى المشركون جلدهم.

فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم^(١) و«إنما سعى رسول الله ﷺ ورمل بالبيت ليري المشركين قوته»^(٢) والرمل هو الإسراع في المشي، وهي حالة وسط بين الركض والمشي.

وإذا كان الرمل يغيض المشركين، فإن الشعر كان يطوف حول الكعبة.. (عبد الله بن رواحة) أحد شعراء العصر والإسلام.. كان لساناً من اللهب يطوف حول الكعبة، ويحرق ما تبقى من معنويات لقريش.

أغمدت السيوف، لكن عبد الله بن رواحة لم يغمد شعره، يقول «أنس: إن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل»^(٣)

وتحسباً لأي مكروه يقول أحد الصحابة وهو (ابن أبي أوفى): «لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم، أن يؤذوا رسول الله ﷺ»^(٤)

أتم ﷺ وأصحابه عمرتهم، وعطروا أرواحهم بأجواء مكة الحلم، ومكثوا حسب الاتفاق المبرم ثلاثة أيام.. تمتعوا بقرب بيت الله الحرام، وخلال هذه الأيام طلب ﷺ يد امرأة اسمها ميمونة بنت الحارث.

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٩٢٣.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٢٩٣.

(٣) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-١٣٩ وغيره من طريق عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس، وجعفر بن سليمان صدوق زاهد من رجال مسلم وثابت تابعي ثقة سمع أنسا انظر النسائي ٥-٢٠٢ وفي الكبرى أيضا ٢-٢٨٣.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٢.

الزواج بميمونة

وميمونة هذه، هي أخت زوجة العباس عم النبي ﷺ، وابن عباس رضي الله عنهما يتحدث عن زواج خالته فيقول: «تزوج النبي ﷺ ميمونة في عمرة القضاء»^(١)

ويقول «تزوج النبي ﷺ ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال»^(٢) لكن يبدو أن ابن عباس قد أخطأ لصغر سنة، فقد كان طفلاً آنذاك، لذلك توجهنا إلى ميمونة رضي الله عنها، وسألناها فقالت: «رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ تزوجها حلالاً، وبنى بها حلالاً بنى بها بسرف»^(٣) وهو مكان قريب من مكة.

وقال ابن أختها الآخر يزيد الأصم: «حدثني ميمونة بنت الحارث: أن رسول الله ﷺ تزوجها وهو حلال.

قال: وكانت خالتي وخالة ابن عباس»^(٤) وكان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب، فأقام رسول الله ﷺ بمكة»^(٥) ثلاثة أيام هو وأصحابه يستمتعون بأجوائها الطيبة.. بمراتع الطفولة وذكريات الشباب.. بطرقاتها وبيوتاتها التي أرغمهم الكفر على مغادرتها، وبعد اليوم الثالث اضطروا إلى مغادرتها..

كان فراقاً مؤلماً يتحدث عنه البراء بن عازب فيقول: «أقام رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في عمرة القضاء، فلما كان يوم الثالث قالوا لعلي: إن هذا آخر يوم من شرط صاحبك، فمره فليخرج.

فحدثه بذلك قال: نعم، فلنخرج»^(٦). فالنبي ﷺ خير من يفى بالعهود، لكن:

(١) صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٣.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٣.

(٣) سنده صحيح رواه الحاكم ٤-٣٣ حدثنا محمد بن يعقوب ثنا محمد بن إسحاق الصغاني ثنا وهب بن جرير ابن حازم ثنا أبي قال سمعت أبا فزارة يحدث عن يزيد بن الأصم عن ميمونة. يزيد تابعي ثقة - التقريب ٥٩٩ وتلميذه راشد بن كيسان تابعي ثقة التقريب ٢٠٤ ووهب ووالده ثقتان التقريب ٥٨٥.

(٤) صحيح رواه مسلم ٢-١٠٣٢.

(٥) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ١١-١٧٣ والطبري. التاريخ ٢-١٤٣ ثنا أبان بن صالح وعبد الله بن أبي نجيع عن عطاء بن أبي رباح عن مجاهد عن ابن عباس. عطاء ومجاهد تابعيان إمامان ثقتان وأبان وعبد الله ثقتان التقريب ٣٩١ و٥٢٠.

(٦) حديث حسن رواه أبو عوانة ٤-٢٩٥ حدثنا الربيع بن سليمان قال ثنا أسد بن موسى ثنا يحيى بن زكريا ابن أبي زائدة قال حدثني أبي عن أبي إسحاق عن البراء.. أسد السنة صدوق وشيخه ثقة متقن ووالده ثقة لكنه سمع من أبي إسحاق متأخراً ويشهد له ما بعده.

النبي ﷺ يقدم عرضاً لقريش

يلتمس منهم السماح له بتمديد فترة بقاءه وأصحابه في مكة أياماً، كما طلب منهم مشاركته أفراح عرسه ووليمته.

عن هذا الالتماس، وعن رد قريش يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وأقام بمكة ثلاثاً فأتاه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش في اليوم الثالث، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا. قال: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا. فخرج بميمونة بنت الحارث رضي الله عنها حتى أعرس بها بسرف»^(١) وعندما هم ﷺ بمغادرة أحب البلاد إلى قلبه لحقت به ابنة عمه وحبيبه سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، ورغبت في مصاحبته إلى تلك المدينة الطيبة، التي آوت والدها واحتضنته إلى يوم القيامة.. «خرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي، فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك احملها.

فاختصم فيها علي وزيد وجعفر. قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنة أخي. فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم.

وقال لعلي: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا»^(٢)

نسيج متناغم وخلاب من العلاقات والحب حوله ﷺ.. كل يرى أنه أحق برعاية يتيمة حمزة، وكلمات تواسي تلك القلوب المفعمة: أنت مني وأنا منك.. أشبهت خلقي

(١) سنده قوي وقد ضعفه الإمام الألباني في تعليقه على فقه السيرة للشيخ الغزالي رحمهما الله حيث قال رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون سند فقه السيرة (٣٦٤) لكنني وجدت له سنداً في المستدرک ٤-٢٣ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثني بن أبي نجيع عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس والسند من الحاكم إلى ابن إسحاق سند صحيح موثق في السيرة خاصة دون غيرها وبقية السند قوي مر معنا وهو الحديث قبل السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

وخلقى.. أنت أخونا ومولانا.. وقافلة رضى الله عنها تحت الشجرة، والمطايا والقلوب
تتفطر بين مكة وطيبة..

وصل ﷺ إلى المدينة، لكن حياة من نذروا أنفسهم لإزالة تجاعيد الأرض وأحزان
القلوب بالإيمان والتوحيد لا تعرف الهدوء ما دام هناك شبر يئن من وخز الأصنام
والأوثان والظلم، فالقضية ليست بحثاً عن الغنائم، أو سعيًا وراء دفع حدود الدولة
الجديد إلى الأقصى الممكن.. هي النبوة والتوحيد، ومن حق كل البشر الحصول عليها،
وليس من حق من يحملونها الاستئثار بها وحرمان الآخرين من التمتع بها، وليس من
حق أحد مهما كان منع صوت التوحيد من الوصول إلى القلوب.

بعد عودة النبي ﷺ من مكة قرر القيام بالتخاطب مع الدول العظمى المجاورة،
لكن قبل ذلك وصلت أخبار، ووصلت شخصيات، وحدثت أحداث اهتزت لها مكة
والمدينة.. حتى الحبشة هزها ما هز مكة والمدينة، ولم لا تهتز المدينتان وآخر داهيتين
من قريش ينتزعان قلوبهما وروحيهما من مخلفات العادات والوثنية الموروثة، ويتجهان
بها نحو مدينة الفجر والتوحيد:

خالد بن الوليد وعمر بن العاص يهاجران

وإسلام أمثالهما يفقد قريشاً توازناً، ويصيبها في ما تبقى لها من عزم، فأين
لقريش بقائد ميداني في مثل دهاء خالد، الذي يقرأ جيش خصمه كما يقرأ اسمه..؟
وأين لها بمثل عمرو بن العاص داهية يزحزح دهأؤه الجبال..؟

كان لهذين العظيمين عناد العظماء وثقتهم بقدراتهم على حل معضلة محمد
عاجلاً أو آجلاً، وهذا ما يغري أمثالهما ممن حباهم الله بعقول وقدرات ذات مواصفات
قياسية.. تجد لديهم الفرح بما عندهم، وحب الاستقلال والترفع عما يؤمن به ويسلكه
البسطاء، لكن الميزة في الإسلام هو أنه بسيط ومدهش ومعجز في الوقت نفسه، وتلك
حقيقة لا مفر منها، وقدرته على تطويع الجبابرة والمفكرين تماماً هي كنعمته ورقته
في الإمساك بأيدي البسطاء والمساكين، وأخذهم إلى حيث ينعمون. لكن عنصر العناد
والاعتداد بالنفس والحسد أحياناً لدى العظماء يحرمهم من البوح بالحقيقة الصارخة
داخل أعماقهم، وقد كان إسلام خالد وعمر هو الخلاص من معاناة العناد، والاعتداد

بالذات، وفي قصة إسلامهما تفاصيل تلك التعرجات التي سلكتها الروح والعقل بعيداً عن الصراط المستقيم، حتى وجدا نفسيهما يوماً في صحاري أبي جهل، حيث لا مكان لغير الضياع والعطش والموت.

يقول عمرو رضي الله عنه: «إني قد كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما»^(١) فلما.. لما ماذا يابن العاص؟..

«لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكاني ويسمعون مني فقلت لهم: تعلمون والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً كبيراً منكراً، وأنني قد رأيت رأياً فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف، فلن يأتينا منهم إلا خير.

فقالوا: إن هذا الرأي. فقلت لهم: فاجمعوا له ما نهدي له.

وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدماً كثيراً، فخرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لنعده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده

فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألتة إياه، فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأيت قريش إني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال: مرحباً بصديقي، أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدماً كثيراً، ثم قدمت إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا فأعطينيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-١١٢.

فغضب، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه.

فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟

فقال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: فبايعني له على الإسلام. قال: نعم.

فبسط يده، وبايعته على الإسلام ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة. فقلت: أين يا أبا سليمان؟

قال: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي، أذهب والله أسلم، فحتى متى..؟ قلت: والله ما جئت إلا لأسلم.

فقدمنا على رسول الله ﷺ، فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله^(١) «ابسط يمينك لأبايعك فبسط يمينه.

فقبضت يدي. قال: ما لك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشتري. قال: تشتري..؟ بماذا؟

قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله.

وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقمت، لأنني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة^(٢)

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-١٩٨ والحاثر (زوائد الهيثمي) ٢-٩٣٣ حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي عن أبي حبيب بن أبي أوس حدثني عمرو. شيخ ابن إسحاق تابعي ثقة فقيه، وراشد قال عنه يحيى بن معين ثقة يروى عنه المصريون - الجرح والتعديل ٣-٤٨٦، وحبيب قال الحافظ في الإصابة ٢-١٥: ذكره ابن يونس فيمن شهد فتح مصر فدل على أن له إدراكاً ولم يبق من ثقیف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدا فيكون هذا صحابياً.

(٢) صحيح مسلم ١-١١٢.

تلك العبارات التي تن من أعماق عمرو بن العاص تكشف ما يتقد داخله.. كم كان اتخاذ القرار الشجاع في اعتناق الحقيقة مؤلم حقاً، لكن ذلك الألم لم يدم أمام سعادة العيش في واحة الإيمان وراحته، وأمام العيش بين تلك المشاعر الفياضة، التي تتدفق من كلمات وأحضان إخوته الجدد، الذين يبتهجون به وبخالد الآن.

شمس جديدة تطلع على خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وحياة جديدة بالتوحيد تشرق عليهما.. تغمرهما نشاطاً وحيوية، وأهدافاً أسمى، وآفاقاً كانت الوثنية تعصب عينيها وروحيهما عنها، وإذا كانت كلمات النجاشي العظيم هي الشعلة التي تغفلت في ضمير عمرو لتنيره، فإن هذا النجاشي لا يكف عن تحريك الحب والمشاعر، لكنه اليوم يمارس استمطار الدموع والذكريات، ويضفي على أجواء المدينة سحابة من الحزن والوجوم. ما الذي فعله النجاشي بقلوب المؤمنين..؟

مات النجاشي رحمه الله ورضي عنه

خبر تكدرت له الحبشة، وتكرر له جعفر وأصحاب السفينة والنبى ﷺ والمؤمنون جميعاً.. خبر يجعل اليوم ثقیلاً تحسب ساعاته بالدموع. لم يأت الخبر فوق سفينة أو بغير.. جاء الخبر من السماء، فتكرر له أهل الأرض، ولا أدري كم من الدموع سفحت على ذلك الملك الإنسان.. العادل الصالح، الذي كان خير معين عندما عز المعين، وكان خير مجير عندما ضاقت الديار والأهل بمن يقول: لا إله إلا الله.

أصحمة النجاشي تحت الثرى، لتنزل من السماء سنة جديدة مع خبر وفاته. سنة يقول عنها أبو هريرة رضي الله عنه: «نعى لنا رسول الله ﷺ صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه، فقال استغفروا لأخيكم»^(١) وقال: «مات اليوم رجل صالح»^(٢) «مات اليوم عبد لله صالح»^(٣). ثم قال: «صلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أصحمة النجاشي»^(٤) ثم دعا النبى ﷺ أصحابه «فخرج بهم إلى المصلى»^(٥).

(١) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٧.

(٣) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٤) سنده على شرط الشيخين رواه أحمد ٤-٧ من طرق عن قتادة عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد أن

رسول الله ﷺ. أبو الطفيل وحذيفة صحابييان.

(٥) صحيح مسلم ٢-٦٥٦.

والمصلّى غير المسجد، فالمصلّى في الصحراء وليس له جدران. ثم «إن رسول الله ﷺ صف بهم بالمصلّى فصلّى فكبر عليه أربع تكبيرات»^(١) ليس فيها ركوع أو سجود.

يقول جابر: «إن رسول الله ﷺ صلى على النجاشي فكنّت في الصف الثاني أو الثالث»^(٢) استغرب بعض المصلين تلك الصلاة، وذلك الاستغفار لرجل لم ير النبي ﷺ، ولم يره النبي ولم يهاجر إليه، ولم يبايعه، بل ظنوه مازال علجاً نصرانياً.

يقول أنس: «لما توفي النجاشي قال النبي ﷺ: استغفروا لأخيكم. فقال بعض القوم: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة.. فنزلت ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعُوا لِذِكْرِ اللَّهِ لَا يَسْتَرْوْنَ بِعَايَةِ اللَّهِ ثُمَّ لَا تُنْفِكُ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾»^(٣)

علم أولئك المتسائلون مكانة النجاشي عند ربه، وشهادته له التي أنزلها من فوق سبع سماوات.. الحبشي الكريم الذي كان ذات يوم يلتقط عوداً من الأرض ويرفعه، ليخاطب من حوله من النصراري والوثنيين، ويخاطب المؤمنين الذين لا ذوا بعدله وطمعوا في حمايته من بطش طواغيت قريش.. تحدث حينها فاضحاً شوقه الجارف للنبي ﷺ: «تناول النجاشي عوداً من الأرض فقال: يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد ما يقول هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسول الله. والذي بشر به عيسى ابن مريم ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه.. امكثوا في أرضي ما شئتم، وأمر لنا بطعام وكسوة»^(٤) ما أجمل هذا الأسمر وما أجمل صفاته، وما أفسح صدره وأرضه عندما ضاقت صدور الأهل والأقارب.

(١) صحيح البخاري ٤٤٣-١. (٢) صحيح مسلم ٦٥٧-٢.

(٣) حديث صحيح رواه ابن أبي حاتم في التفسير ٣-٣١٨ وابن مردويه - تفسير ابن كثير ٤٤٤-١ من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد عن ثابت عن الحسن عن النبي ﷺ وابن مردويه من طرق عن حميد عن أنس نحوه وهذه أسانيد صحيحة إلا مرسل الحسن لكنه قوي بها.

(٤) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٢٥٠ حدثنا عبيد الله بن موسى قال أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى وقد ضعفه الإمام الألباني رحمه الله هذا السند في ضعيف أبي داود (٢٢٥) ولا أدري على أي شيء استند غفر الله له، فلا يوجد تفصيل في صحيح سنن أبي داود والصواب أنه صحيح لأن إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة سند صحيح وهو من أسانيد البخاري، وأبو إسحاق عن أبي بردة من أسانيد مسلم أما تلميذ إسرائيل فتحة ثبت - التقريب ١-٦٨ وهو لم ينفرد بل تابعه عند ابن أبي شيبة ٧-٢٥٠ شيخه: عبيد الله بن موسى وهو ثقة وأثبت في إسرائيل من أبي نعيم انظر التقريب، فالسند صحيح، وللحديث شاهد حسن عند أحمد ١-٤٦١ حدثنا حسن بن موسى قال سمعت حديجا أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود. وحديث حسن الحديث إذا لم يخالف الثقات.

يتذكر جعفر ورفاقه الهاربين من البطش لذة طعام النجاشي وجمال تلك الكسوة، وعطف الملك الحبيب الذي جاءت الأخبار من أهل الحبشة بعد دفنه ب:

كرامة على قبر النجاشي

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور»^(١).

ودع الصحابة أخاهم بالدعاء وطلب الرحمة له من الله، وتولى بعده ملك آخر، ونجاشي آخر على الحبشة، وكان هذا الملك كغيره من البشر له عقل وروح، وهما بحاجة إلى من يأخذهما إلى حيث أجواء الإسلام الرحبة، لأن في إطلاقهما إطلاقاً للشعوب والاتباع. لقد قرر ﷺ مكاتبته ودعوته للإسلام هو وغيره من الملوك والأكاسرة، فالإسلام لا يعرف الطبقات في نظرته للبشر، ولا يعرف الألوان ولا الأحساب ولا الأنساب.. هو رسالة توحيد من الخالق إلى المخلوق، ويجب على من يحملون هموم الرسالة تسليمها إلى أهلها.. إلى كل البشر دون استثناء أو تمييز، وإذا كان الإسلام يمنح الضعفاء والمستضعفين أهمية قصوى، فإنه يوظف الأقوياء لنشر الحق والعدل على وجه الأرض، ويسير معهم في ذلك إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه، وليس هناك أنسب من هذه الأيام التي أعقبت فتح خيبر، فهي أيام سلام غل فيها النبي ﷺ قريشاً عن الاعتداء والحرب، وتمكن من السيطرة على اليهود واحتواء خياناتهم داخل دوائر ضيقة يمكن مراقبتها، وهؤلاء في نظر الإسلام عصابات مزعجة، وحفر في طريق دعوة تنظر إلى أبعد من قريش وإلى أبعد اليهود..

دعوة الإسلام عالمية.. تنظر إلى الأرض دون حدود، وإلى ما هو أبعد من الأرض، أما الأقوياء الذين يسعى ﷺ لاستثمار سطوتهم وسلطتهم، فهم قادة الدول الكبرى المحيطة بالجزيرة العربية، والذين تتوزعهم ديانات واتجاهات مختلفة، لذلك قرر:

(١) هو ليس بحديث وسنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود ٣-١٦ وغيره حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة. يزيد وعروة تابعيان ثقتان مرا معنا كثيراً.

مراسلة الملوك والجبابة

ومن المؤكد أن ردود الفعل تجاه تلك الرسائل ستكون متباينة، كما أن من غير المستساغ لدى هؤلاء الجبابرة أن يروا عربياً كان يرعى الغنم في الصحاري وبين الجبال يقتحم عليهم ما هم فيه من أبهة وعظمة.. مطالباً إياهم باتباعه وترك ما ألفوه وورثوه هم وشعوبهم.. الأمر صعب ويحتاج إلى نفوس تتفوق على نفسها.

يقول أنس بن مالك: «إن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ»^(١). لكن وقبل أن يبعث ﷺ بتلك الرسائل اضطر إلى أن يأمر بصنع خاتم له.

النبي عليه السلام يأمر بصنع خاتم

يقول «أنس إن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي، ف قيل: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم. فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقة فضة، ونقش فيها محمد رسول الله»^(٢) «كأنني أنظر إلى بياضه في يده»^(٣) «وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر:

محمد سطر

ورسول سطر

والله سطر»^(٤).

ختم ﷺ رسائله، وسلمها لمن سيقوم بحملها إلى أصحابها، وقد جاءت أقسى ردود الفعل على تلك الرسالة من عباد النار في بلاد المجوس - فارس، ومن ملكهم المتعجرف (كسرى) وقد حمل هذه الرسالة الصحابي الجليل صاحب الدعابات (عبد الله بن حذافة السهمي) الذي أمر أصحابه يوماً بأن يقدفوا أنفسهم في النار (ممازحاً) وكانت مهمة عبد الله مقتصرة على تسليم الرسالة إلى عظيم البحرين، والذي طلب منه النبي ﷺ تسليم الرسالة بدوره إلى كسرى، فما هو:

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٤) صحيح البخاري ج: ٣ ص: ١١٣١.

رد كسرى الفرس

ملك معتوه لم يكن يتمتع بلياقة أدبية، ولا حتى دبلوماسية تؤهله لقيادة أمة عظيمة كأمة فارس.. كان كسرى كتلة من الغرور.. لم يجد خطاب النبي ﷺ في تذكيره ببشريته، وقدرة الله عليه. قرأ كتاب رسول الله ﷺ فاستشاط غضباً وغروراً.. كيف يبعث عربي إليه رسالة يقدم فيها مطالب، بدلاً من أن يبعث له بفروض الطاعة والولاء مقرونة بالهدايا والضرائب!!؟

هذا ما لا يحتمله رجل وثني يعبد خطبا محترقاً.. رجل عديم الاحترام مثل كسرى. يقول أحد الصحابة: « إن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه»^(١) و«خرقه»^(٢) غير آبه به ولا بمن كتبه. أما النبي ﷺ فواصل كتابة الرسائل مبشراً الدنيا بعودة التوحيد النقي إلى الأرض من جديد فكتب:

رسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية

وهو أمير القبط، أو الأقباط، وهم سكان مصر، وقد تحول بعضهم من الوثنية إلى المسيحية، وكان ملكهم أكثر تهديباً وأكرم خلقاً من ذلك المجوسي الأرعن.. المقوقس «أمير القبط أهدى إلى رسول الله ﷺ جاريتين وبغلة، وكان يركب البغلة بالمدينة، وأخذ إحدى الجاريتين لنفسه»^(٣) فأسلمت وتسراها النبي ﷺ، وقد تردد في المدينة أن قبطياً له قرابة منها رضي الله عنها يزورها ويتردد عليها، فدخل الشك إلى النبي ﷺ «فقال رسول الله ﷺ علي: اذهب فاضرب عنقه. فأتاه علي فإذا هو في ركي يتبرد»

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

(٣) حديث حسن رواه الحارث - زوائد ١-٥١١ حدثنا خالد بن خداس نا حاتم بن إسماعيل عن بشير بن مهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ورواه في الأحاد والمثاني ٥-٤٤٧ والطبراني في الأوسط ٤-٣٧ من طريقين عن حاتم.. به وهو سند قوي لولا لين في بشير وهو صدوق من رجال مسلم، وله شاهد ضعيف من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن رجل مجهول... في الأحاد والمثاني ٥-٤٤٧.

فيها. فقال له علي: اخرج. فتناوله يده، فأخرجه فإذا هو محبوب»^(١) «فكف علي عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمحبوب»^(٢).

حملت تلك الفتاة القبطية، فكانت أول امرأة تحمل منه ﷺ بعد زوجته خديجة رضي الله عنها.. تلك هي هدية المقوقس الذي رفض الإسلام، لكنه كان مهذباً في رده. أما أكثر الرسائل إثارة فكانت تلك التي حملها الصحابي دحية الكلبي إلى ملك الروم. انطلق دحية الكلبي إلى عظيم بصرى في الشام، والذي سيقوم بدوره بإيصال الرسالة إلى ملك الروم هرقل، وكان قد سبقه إلى أرض الروم - الشام زعيم مكة وقريش أبو سفيان، لا لشيء سوى التجارة فقط.

تصادف وجود أبي سفيان مع وصول الرسالة النبوية الكريمة، لن يقص دحية ما حدث.. زعيم قريش أبو سفيان الذي كان حاضراً في بلاط الروم هو من سيروي لنا القصة، حيث استدعاه هرقل لطرح بعض الأسئلة عليه حول شخصية النبي ﷺ، بصفته رجلاً من قومه ومن أعرف الناس به.

لكن سؤلاً ملحاً يتجول على طريق الشام هو: كيف يسافر أبو سفيان وتجارته بأمان؟.. صحيح أنه لن يخرج أحد من المدينة لاعتراضهم، لكن في الطريق أمر مرعب ومخيف.. أسدان جريحان يتلمظان لانتزاع حريتهما وما سلبتة قريش منهما، وهما في حل من ذلك كله، والنبي ﷺ في حل مما يفعلانه، ومن الظلم إلصاق صفة الإرهاب وقطع الطريق بهما.

هما طريدا الفكرة والعقيدة.. صودرت أموالهما وأولادهما وأوطانهما، وحريتهما، ومنازلهما، وليس لهما على هذه الأرض سوى مساحة بالكاد تتسع لأنفاسهما وسيفيهما، لكنهما ليسا في أزمة كأزمة قريش، لأنهما يحتسبان معاناتهما عند الله، أما قريش فتعيش أزمة لا حل لها سوى العار.

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩ والركي هو البئر، والمحبوب هو من لا يستطيع الزواج.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩.

أزمة قريش

تكنم في انهيار اقتصادها، وتعذر تسيير تجارتها، وعزلتها عن العالم. ولا مخرج لها من ذلك كله إلا خلال بوابة العار المخزية، وهي التنازل عن شرطها في منع المؤمنين من اللحاق بدولتهم ونبيهم ﷺ، وهذه هي القصة بالضبط:

انفلت (أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوه وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤)

وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله، ولم يقرؤا بيسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت^(١). وهاهم اليوم يحون باطلهم بأيديهم، ويتنازلون عن جورهم الذي ارتد طعنات من أبي جندل وأبي بصير في صدورهم.

لحق أبو جندل وأبو بصير ومن معهما بالمدينة، ليمارسوا حرية الحركة والمعتقد في أجواء نقية.. بعيدة عن الخرافة والظلم والجاهلية، وانطلق الكثير من الممنوعين نحو مهوى الفؤاد محمد ﷺ ومدينته المنورة بالحب والأنصار، وعادت لقريش حرية التنقل نحو الشام واليمن، بعد أن أمنت فتك أبي جندل ورفاقه.

هذا هو سبب انطلاق أبي سفيان في رحلة صيفية نحو الشام ليتزامن وصوله مع وصول:

رسالة النبي ﷺ إلى هرقل الروم

كان ﷺ يريد استثمار فترة التواضع لله التي يمر بها هرقل ملك الروم، بعد انتصار جيشه على جيش فارس، حيث عاد ذلك الملك من مدينة حمص إلى بيت المقدس سيراً على الأقدام شكراً لله.

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٩٧٧-٢.

يقول أحد الصحابة: « إن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعو إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله، فلما جاء قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي ها هنا أحداً من قومه لأسألهم»^(١).

وهنا يكمل أبو سفيان القصة فيقول: «انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ... فبينما أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل، وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم.

فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقلت: أنا.

فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبتني فكذبوه.

قال أبو سفيان: وايم الله لولا أن يؤثروا علي الكذب لكذبت. ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو حسب.

قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: يزيدون أو ينقصون؟

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

قلت: لا بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له؟

قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجلاً يصيب منا ونصيب منه.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال أبو سفيان: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه^(١).

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟

قلت: لا.

ثم قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم؟ فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومهم. وسألتك هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان من آبائه ملك، قلت رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا. فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له؟ فزعمت أن لا. وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجلاً ينال منكم وتنالون منه. وكذلك الرسل تبلى، ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟

(١) أي أنه لم يستطع أن يقدح فيه ﷺ إلا في قوله: أنه لا يدري هل سيفدر في المستقبل أم لا.

فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال أحد هذا القول قبله؟
فزعمت أن لا.. فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم^(١) بقول قيل قبله.

ثم قال: بم يأمركم؟

قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

قال: إن يك ما تقول فيه حقاً، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه
منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه،
وليلغن ملكه ما تحت قدمي.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم:

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم
يؤتكَ الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى
كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ إلى قوله ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾
فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللفظ وأمر بنا
فأخرجنا.

فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمر أمرُ بن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني
الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر^(٢). «والله ما زلت ذليلاً
مستيقناً بأن أمره سيظهر»^(٣)

لكن أبا سفيان مخمور بالزعامة والسلطة التي تخول صاحبها تشويه الحقيقة
وتبرير رفضها.

(١) يعني قلّد قول أناس قبله.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ١٦٥٨-٤ و١٠٧٦-٣.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ١٦٥٨-٤ و١٠٧٦-٣.

لم ينتفع هرقل بتلك الرسالة، لكنه يشعر بوخزها المؤلم في ضميره، ولم يكن أبو سفيان أحسن حالاً منه. أما النبي ﷺ فلم يكن يعقد آمالاً على عناد كهذا.. كان يتطلع إلى مساحات خصبة يقف هذان العنيدان حراساً للقطط وتغييب الأخضر عنها. لكن لا يأس مع الدعوة، ولا بد للحق أن ينتشر وينتصر ولو متأخراً، فالتأخير مجرد تمحيص للضمائر والأتباع، والتأخير في حقيقة الأمر هو اتجاه نحو الجذور، وسفر خلال الأعماق كي تتعالى شجرته في السماء، بعد أن تتمكن في الضمائر والعقول والوجدان. أما تلك النباتات التي تظهر فجأة وبسرعة، ودون رصيد جذري فما هي إلا ريع واحدة وتختفي.

لم يكن في رسائل النبي التهديد بقوة عسكرية، أو زحف أحمر لا يرحم.. كانت الرسائل موجهة نحو الضمير والعقل.. كانت رسائل تهز من الداخل، وتغزو من العمق، فليس هناك من يستطيع اليوم تهديد هرقل أو كسرى، لكنها رسالة الإسلام التي لا تعرف حدوداً. وقد أدرك هرقل أنه إن لم يستقبل الحق اليوم فسوف يستقبل له غداً، وأدرك أبو سفيان من قول هرقل ما كان يرفض إدراكه منذ سنين، فالقريب دائماً لا يقنع بإبداع القريب منه، إلا بعد أن يرى اعترافات الأبعد والأقوى تنهال على قريبه المبدع، والنبي ﷺ لم يكن ليضيع أوقاته في إقناع المعاند والحاسد، فالإسلام والزمن كفيلا بهما، وبعد أن وصلت تلك الردود إلى مسامع النبي ﷺ قال لأصحابه وحيماً صادقاً، وبشرى لن تتخلف..

قال ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس بيده لتتفقن كنوزهما في سبيل الله»^(١).

أما النجاشي فلا أدري ما رده على الرسالة التي وصلته، لكن يبدو أن الرسالة الموجهة إلى هرقل أحدثت تداعيات مزعجة ومقلقة للنبي ﷺ ولدولته، مما جعله يعد جيشاً لملاقاة طموحات الروم بإيقاف النبوة والإسلام وتداعيات الرسالة.. النبي ﷺ يعد الآن جيشاً للتوجه للشام، لكنه قبل ذلك يقوم بـ:

(١) صحيح البخاري ١١٢٥-٣.

إرسال عبد الله بن رواحة إلى خيبر

أرسله عليه السلام لكي يقبض نصف المحصول السنوي من زراعة أرض خيبر.. حسب الاتفاق المبرم بين النبي ﷺ واليهود، والذي على أساسه أبقاهم هناك ولم يطردهم منها، وكان عبد الله يقوم بذلك عن طريق الخرص، نظراً لاستحالة الوزن والعد، والخرص هو تقدير الثمر وهو على رؤوس النخل.

وفي هذا العام حاول اليهود رشوة ابن رواحة، حيث «كان عبد الله ابن رواحة يأتيهم كل عام يخرصها عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه. فقال: يا أعداء الله أتطعموني السحت، والله لقد جئكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبِّي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض»^(١) وبهذا العدل قام الإسلام وانتشر، وبغيره تهار دولته مهما تدين أصحابها وصاموا وصلوا وادعوا أنهم أهل الإسلام وحماته، وإلى العدل أرسل ﷺ أصحابه المعذبين ذات يوم.. إلى رجل في الحبشة يعلق الصليب على صدره، لأنه عادل لا يظلم عنده أحد.

عاد ابن رواحة إلى المدينة محملاً بنصيب دولة الإسلام من التمر، وعاد اليهود إلى بيوتهم بعد أن فشلت رشوتهم في بث الفساد المالي بين رجال دولة محمد.. هذه الدولة التي تزرع رقابة الله قبل أن تزرع الخوف من السلطة والحكومة.. عاد اليهود يخططون لجريمة جديدة ضد رأس الدولة، وأخيراً فكر اليهود بـ:

سحر النبي ﷺ

ولم يجدوا أنسب للقيام بهذه الجريمة من خادم للنبي يدعى «ليبيد بن أعصم، رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً»^(٢) وقد كان يخدم النبي عليه السلام ويثق

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان ١١-٦٠٨ والطبراني ٢٤-٦٧ والبيهقي ٩-١٣٧ وغيرهم من طرق عن الثقة

حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، وعبيد الله ثقة ثبت من أوثق الناس رواية

عن نافع - التقريب ٣٧٣.

(٢) صحيح البخاري ٥ - ٢١٧٥.

به رغم أنه يهودي، وقد خضع هذا الخادم لإلحاح اليهود، فأحضر لهم مشطه عليه السلام وبه شيء من مشاطه، أي الشعر الذي يعلق بالمشط، ووضعه في وعاء للقاح النخل يسمونه (جف طلعة)، ثم قرأوا عليه تعاويذ السحر بمساعدة الجن، ثم أخذوه إلى مكان لا يمكن لأحد أن يعثر عليه.. مكان غائر كحقد اليهود. لقد خبأوه تحت صخرة يسمونها (رعوف) وهي الصخرة التي توضع في أسفل البئر، فبدأ مفعول السحر يسري في جسد النبي ﷺ فقط لا غير.

تقول «عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتين»^(١) أي أنه أثر على جسده فقط، أما الوحي والتبليغ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكن هذا السحر أثر على النبي ﷺ جسدياً، حيث إنه حرمه من الاتصال بنسائه أياماً، لكن الله لم يترك نبيه.

تقول عائشة: «كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتين، فقال: يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقمعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً. قال: وفيهم؟ قال في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان.

فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه، فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين، فاستخرج فقلت: أفلا - أي تنشرت^(٢)؟ فقال: أما والله فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»^(٣).

ويروي زيد بن أرقم تفاصيل إخراج السحر فيقول: «سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى، فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء به، فأمره أن يحل العقد وتقرأ آية.

(١) صحيح البخاري ٥ - ٢١٧٥.

(٢) أي أفلا استعملت رقية لحل السحر.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢١٧٥.

فجعل يقرأ ويحل، حتى قام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال^(١)، فما ذكر رسول الله ﷺ لذلك اليهودي شيئاً مما صنع به، ولا أراه في وجهه^(٢). أي أن النبي ﷺ لم يقتل ذلك الرجل، ولم يشعره حتى في تعابير وجهه عليه السلام أنه يضمر له شيئاً، فلم يكن عليه السلام ينتقم لنفسه. فلم يعد لليهود من وزن، وقد تلاشت قواهم فأصبح همه عليه السلام موجهاً للقوى العظمى، التي سيطول الصراع معها في المستقبل، ومنها قوة الروم، لذلك أعد جيشاً لملاقاة الروم الزاحفين نحوه، في مكان شمال المدينة يقال له:

مؤتة

هياً النبي ﷺ جيشه، وعين له قائداً هو ابنه سابقاً، ومولاه حالياً زيد بن ثابت رضي الله عنه، فهو لن يذهب معهم هذه المرة. لكنه عين بدلاً منه أميراً أثار حفيظة بعض الصحابة رضي الله عنهم وتساؤلاتهم: كيف يعين زيد بن حارثة الرقيق أميراً!! لكن النبي ﷺ الذي قدم لأمته درساً في هدم الجاهلية بتزويج زيد من زينب السليلى.. يقدم درساً آخر.. هاهو يوليه الإمارة على صحابته، وعندما تحركت آثار الجاهلية في بعض النفوس أطفالاًها عليه السلام بكلمات كالطر.. حلف بالله أنه أهل للإمارة وإن طعن فيه من طعن، ثم قال لهم: (وأيمن الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي)^(٣)

زيد الذي ملأ سمع النبي وبصره وقلبه.. زيد حب النبي ﷺ الذي تقول عنه عائشة: «ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو كان حياً بعده لاستخلفه»^(٤)

(١) أي كأنه أطلق من حبل مربوط به.

(٢) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١١٥-١ وغيره من طرق عن الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم. والأعمش معروف وشيخه تابعي ثقة سمع زيد. التقريب ٦٠٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٤٤٤.

(٤) سنده قوي رواه ابن أبي شيبة ٦-٣٩٢ وأحمد ٦-٢٨١ عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد عن وائل بن داود سمعت البهي يحدث أن عائشة. ووائل التيمي وشيخه البهي تابعي ثقة انظر التهذيب والبهی عن عائشة على شرط مسلم.

زيد الذي يقول عنه أحد أفراد هذا الجيش: «ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزل في القرآن ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾»^(١).

فمن مثل هذا الأمير وهو يتزين بهذه النياشين، ومن مثله وهو يسكن هذه القصور في قلبه ﷺ.

تلاشت الجاهلية وحضر الإسلام، وفرغ عليه السلام من إعداد الجيش، ثم خرج لتوديعهم مبكراً وهي سنته ﷺ، وجعل زيد بن حارثة أميراً عليهم، ثم قال لهم «رسول الله ﷺ: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»^(٢).

إذاً هذه أول غزوة يشارك فيها جعفر رضي الله عنه بعد قدومه من الحبشة، وهي كذلك أول غزوة يشارك فيها فارس الإسلام الجديد خالد بن الوليد.. يا لها من أسماء تهز الأرض، ويا له من وداع يأخذ بنياط القلب. كيف لا وهذا الجيش القليل ذاهب لملاقاة جيش الروم الذي هزم جيش فارس.. كيف لا والوداع كان لزيد وجعفر..

زيد يودع النبي ﷺ ويودع ابنه أسامة، وينطلق نحو مؤتة، أم نحو موته والجنة.. جعفر الذي عانى الآلام والغربة والبعد يودع ابنه عبد الله ونبيه ﷺ، وعبد الله بن رواحة.. شاعر الموت الذي ردد الخندق شعره، وتغنى به شهداء خيبر وفرسانها.. الشاعر الذي قال أحد أفراد هذا الجيش إن النبي ﷺ قال عن شعره «إن أخا لكم لا يقول الرفث، يعني بذاك بن رواحة قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالكافرين المضاجع» ^(٣)

وقبل انطلاق أمراء مؤتة تقدم جعفر رضي الله عنه بأمنية أملت لها عليه قرابته من رسول الله ﷺ.. أبو قتادة كان هناك يرى ويسمع «أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء، وقال: عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة. فوثب جعفر فقال: يا

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٨٤.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٤.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٧٨.

رسول الله ما كنت أرهب أن تستعمل علي زيداً . فقال : امض فإنك لا تدري أي ذلك خير فانطلقوا»^(١) حتى وصلوا إلى أرض (مؤتة) وهي قرية من قرى البلقاء بالشام، وهناك واجهوا أمواجاً بشرية تدفقت من أرض الروم، واستعدت وأعدت، ولا أدري بالضبط عددهم، لكن الذي أعرفه أن عدد المسلمين كان قليلاً جداً جداً بالنسبة لجيش الروم، أما من حيث الاستعداد فلا يمكن مقارنة جيش دولة الإسلام التي تبلغ الثامنة من عمرها، بجيش إمبراطورية الروم ذات القرون، والتي تسيح جيوشها بين قارتين. وهنا ترد الإشكاليات العسكرية والسياسية التي تداعت على دولة الإسلام أثناء أزمة الخندق.

ما القرار في مثل حال مؤتة

جيش رومي أوله في أوروبا وآخره في مؤتة.. أمام جيش مسلم لا أظن أن عدده يتجاوز ألفين، وهو العدد الذي حضر الحديبية وخيبر، بالإضافة إلى القادمين من الحبشة والمؤمنين الجدد. مع ملاحظة أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وكثيراً من كبار الصحابة رضي الله عنه لم يشاركوا.

إنها معركة أشبه بالأساطير، لكن القرآن نزل ليطبقة البشر، لا ليدهشهم فقط.. القرآن يتعامل مع مثل هذا الظرف بواقعية تناسب البشر وقدراتهم وعددهم، والأدوات المتاحة بين أيديهم.

نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرَضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٢).

«لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عَشْرُونَ مِائَتِينَ، ومئة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿أَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ

(١) سنده قوي رواه أحمد ٢٩٩-٥ وغيره من طريق الأسود بن شيبان عن خالد بن سمير قال قدم علينا عبد الله بن رباح حدثنا أبو قتادة: عبد الله تابعي ثقة وتلميذه تابعي صدوق يهيم قليلاً والأسود وسليمان ثقتان وكلهم من رجال التقريب.

(٢) الأنفال ٦٥.

وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَانَّةٌ صَابِرَةٌ يَعْلَبُوا مَائِنِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلَبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾ وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يضروا منهم، وإن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم أن يقاتلوا، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم»^(٢) أي ينسحبوا من مواجهة العدو ويلتحقوا بباقي المسلمين، وهو ليس كالفرار، فالفرار هروب إلى أي جهة، أما التحيز فانسحاب منظم هدفه الإبقاء على قوة الجيش المسلم عند تعذر المقاومة.

جيش المسلمين الآن معذور في التحوز والانسحاب، نظراً لأن عدد الروم يعادل أضعاف أضعاف عدد المسلمين وعدتهم، وهو ما ينبغي ملاحظته عند التحدث عن الجهاد، فالجهاد ليس مجرد حماس وشجاعة فقط، فعندما تأمل أحد الصحابة جيش الروم.. وجد أن الروم لم يكونوا وحدهم.. معهم أبناء جلدتهم وديانتهم الذين لا يتخلون عنهم.. معهم جيوبهم المتغلغلة في أراضي المسلمين في كل زمان ومكان.

نصارى العرب يقاتلون مع الروم

ظروف قاسية للغاية، فالحرب الآن ضد النصارى العرب والروم، ويبدو أن المعارك تقفز نوعياً إلى مرحلة المجابهة مع الدول الكبرى، التي غالباً ما يصيبها الهلع والغضب من انتشار أفكار تخالف أفكارها، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالدين.

كان الصحابة يأخذون قسطاً من الراحة، ويتناولون شيئاً من الطعام. أحد المجاهدين تبرع بذبح ناقته ليطعم بعض أفراد الجيش، وكان ضمن هؤلاء رجل من أهل اليمن لا يملك إلا سيفه وإيمانه.. قدم من بلاده للمساهمة في منازلة الروم.

نهض اليمني إلى صاحب الناقة ولما وقف أمامه تقدم بطلب غريب، وكان بالقرب منه عوف بن مالك الذي يحدثنا عن قصة:

(١) الأنفال ٦٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في تفسيره ١٠-٣٩: حدثني عبد الله بن أبي نجيع عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس وهذا السند على شرط البخاري في أكثر من خمسة مواضع وابن أبي نجيع ثقة من رجال الشيخين.